في جنوب بلاد العرب

مهد العمران

اشترك المتحف البريطاني ومتحف جامعة فلادلفيا في ارسال بعثة اثرية الى العراق برآسة المستر ولي فحصرت هذه البعثة اعمالها اولاً في تل الابيض اور الكلدانيين الواقعة على ضفة الفرات الجنوبية تبعد نحو ١٠٠ ميل عن البصرة . فعثرت في شتاء سنة ١٩٢٥ على اقدم آثار العمران في العراق ومنها كتابة معاصرة لملك كان يُحب خرافيًا وقطعة من النقش النفيس لم ينتظر العثور عليها هناك. اما الكتابة فتدور على الملك اني پادا بن مس اني پادا وهي اقدم وثيقة تاريخية مؤرخة ، وكاشفها يرى ان عهدها يرجع الى نحو اربعة آلاف سنة قبل المسيح . اما النقش فتلوح عليه امائر الفن السمري وتل الابيض حيث وجدت كانت مصدر كثير من اقدم الآثار السمرية . لذلك رأيت[1] ان الخص ما يعرف عن الحضارات القديمة في العراق وفي مصر وان ابدي رأيًا قد يعلل منشأ الحضارة في البلادين

اصحاب الخزف المدهون

لم يكن السمريون الذين وجدت آثارهم في تل الابيض سكان العراق الأول . فقد سبقهم الى الاماكن التي بنوا فيها هياكل اور واردو (ابو شهرين) اناس سابقون لعهد التاريخ المدوَّن يصح ان ندعوهم « اصحاب الخزف المدهون » وهم يختلفون كل الاختلاف عن السمريين وقد يكونون رحلوا عن تلك الاماكن قبل قدوم السمريين اليها بزمن طويل. هؤلاء الاقوام كانوا يصنعون خزفًا بديعًا في اشكاله والوانه من غير دولاب الخزاف ، ويبرعوا في الامور الزراعية فكانوا يستخدمون محراثًا من الحجر لحرث الارض ويحصدون غلالهم بمناجل من الاجر ويطحنون حنطتهم بدقها بحجر على حجر . ويستدل من آثارهم انهم كانوا يحيكون ، ومن اسلحتهم القوس والمقلاع والفاس الحجرية ومن حلاهم دبابيس من السيج وخرز من العقيق ولم يعرفوا الكتابة ولا النقش في الحجر مما يدل على انهم لم يستعملوا المعادن . وكانوا يأكلون الحبوب والسمك وانواع المحار ويرجح انهم كانوا

(١) المقالة للمستر كروفورد من موظفي المساحة الحربية البريطانية وقد نشرت في جزء يناير الماضي من مجلة الجمعية الجغرافية الاميركية

يصطادون الطيور والحيوانات الصغيرة بالمقلاع والحجر او بالقوس والنشاب. واما مساكنهم فكانت في الغالب اكواخاً من القصب كخيام بعض قبائل البدو

ويقال ان هؤلاء الاقوام كانوا يختلفون عن السمريين في انهم لم يدجنوا الحيوانات اذ كانوا زرّاعاً وصيادين. ومما يؤيد هذا القول وجود كثير من رؤوس السهام الصوانية بين آثارهم. واما السمريون فلم يستعملوا السهام في اول عهدهم بالبلاد

وما يعرف عن هؤلاء الاقوام السابقين للسمريين عدا ما تقدم نزر لا يعتمد عليه. فقد وجدت آنية خزفية تماثل خزفهم كل المماثلة في جزيرة بندر بوشير في خليج فارس. ووجدت البعثة الفرنسوية خزفاً مدهوناً يشبه خزفهم في اسلوبه بشوشن على عمق ٨٠ قدماً. وعثرت كذلك على ما يماثل هذا الخزف في موزيان على مقربة من شوشن. لذلك يرى المستر فرنكفورت احد اعضاء المعهد الانثربولوجي الملكي بلندن ان اصحاب الخزف المدهون هاجروا من شوشن الى العراق وان موزيان وهي على ١٥٠ كيلو متراً من شوشن غرباً كانت محطة لهم بين المكانين

وكيف كانت الحال فان ما نعرفه عن هؤلاء الصيادين الاقدمين نزر ولا يهمنا امره بوجه خاص لانهم زالوا من غير ان يتركوا وراءهم آثار حضارة حية. والراجح انهم جاؤا من الشمال فمن الممكن ان هواء ايران كان آخذاً في الجفاف حينئذٍ والحيوانات التي كانوا يصطادونها جعلت تنتقل الى الجبال في الجنوب والى السهول التي على ضفاف دجلة والفرات

السمريون

هم السمريون الذين انشأوا الحضارة في العراق اذ جلبوا معهم الادوات النحاسية والكتابة عدا الحيوانات الداجنة كما تقدم وكانوا يلبسون لباساً خاصاً كأنه رداء مثنى اسمه باليونانية كوناكس (Kaunakes) وكان الجانب الاعلى من اجسامهم عارياً. من اين جاء هؤلاء الناس؟ ان الكوناكس لباس لا يتفق لبسه مع الاقاليم الباردة بل يدل على انه يلبس في اقاليم الجنوب الحارة. ويدلي المستر فرنكفورت بادلة قوية على ان هؤلاء الناس لم يأتوا من الشمال وليس من الادلة الاثرية ما يؤيد هذا المنشأ. ولم يشر احد من الباحثين الى احتمال قدومهم من جهة غربية شمالية لان ذلك بعيد الاحتمال. فلا يبقى لدينا سوى جهتين الشرق الجنوبي والجنوب. وحينما نحاول ان نختار بين احداهما نرى الادلة ضئيلة لا تجعل الاختيار سهل المنال. فان الكوناكس يوافق اقليم الناحيتين الجنوبية والشرقية الجنوبية. وعدا ذلك فاننا نعرف ان ديانتهم كما ظهرت آثارها

في اور وغيرها ديانة شعب يقطن الجبال . فقد كانوا يقيمون آكاماً كبيرة يشيدون عليها معابدهم لعدم وجود « الاماكن العالية » في السهول . وكتابتهم على ما يقول العارفون لا بدّ ان تكون قد نشأت في بلاد جبلية ولا شك في انهم استنبطوها قبل وصولهم الى السهول

اتصالهم بالحضارات الهندية

وقد ارتأى الدكتور هول مؤلف تاريخ الشرق الادنى القديم ان اصل السمريين من الهند والمكتشفات الاثرية الحديثة هناك تدل على وجود حضارة قديمة لم تعرف قبلاً [1] فالآثار التي وجدت في موهنجودارو ولاركانا في السند وهارپا على نهر راڤي تدل على وجود شبه كبير بينها وبين الآثار السمرية التي وجدت في شوشن سوا في ذلك الاختام او صور الثيران او نوع الكتابة . فحسب الباحثون ان هذا التشابه لا يمكن ان يكون قد حدث اتفاقاً ولذلك ارتأى بعضهم ان اصحاب هذه الحضارة التي وجدت آثارها في الهند كانوا على اتصال بالحضارة السمرية حوالي ٣٠٠٠ سنة او ٢٨٠٠ سنة قبل المسيح

هل جاء السمريون من الهند ؟ اننا لا نرى ذلك لان امامنا اعتراضات جمة على هذا الرأي . اذا صحّ ان تاريخ اتصال الهنود بالسمريين يرجع الى حوالي الالف الثالث قبل المسيح فقد كان ذلك قروناً كثيرة بعد قدوم السمريين الى العراق على اقل تقدير . واذا كانت اصول احدى الحضارتين مستمدة من الاخرى فاصول الحضارة الهندية مستمدة من الحضارة السمرية . قد يكشف الباحثون آثاراً في الهند اقدم عهداً من الآثار التي وجدت حتى الآن . فاذا كُشفت آثار كهذه وظهر منها ان الكتابة الهندية سارت في نشوئها سير الكتابة السمرية التي تشبهها ، امكن القول باحتمال قدوم السمريين من الهند . اما وليس لدينا ما يثبت ذلك فوجوه الشبه التي وجدت في الآثار المكتشفة حديثاً لا تكفي لتأييد هذا الرأي

ولما كانت اور بالا تزال تضرب في مجاهل العصر الظراني ، كان العمران زاهياً زاهراً في اربع بقع غير البقعة المذكورة وهي كريت حيث بدأ العمران في اوائل الالف الثالث قبل المسيح أن لم يكن قبل ذلك واتصل بالجزائر والبلدان المجاورة . والثاني في آسيا الصغرى والثالث في الصين والرابع في مصر

(١) راجع مقتطف نوفمبر ١٩٢٤ ص ٤٣١

الحضارة المصرية المعاصرة

بدأ العهد التاريخي في مصر حوالي اواسط الالف الرابع قبل المسيح على اقل تقدير وسبقهُ عهد من الحضارة السابقة للتاريخ المدوّن يقسم الى قسمين امتاز القسم الثاني منهما باسلوب فني من نوع الاسلوب الذي عثر عليهِ في آثار شوشن عاصمة فارس القديمة على انعدام كل صلة جغرافية بين اصحاب الاسلوبين . وعلى اثر ذلك ارتأى بعض الباحثين ان سكان مصر في تلك الحقبة السابقة للتاريخ جاؤُها من الصحراء الشرقية . وحيث انهم لم يأتوا من نوبيا حتماً فالراجح ان القول بقدومهم من الصحراء الشرقية صواب

كذلك من المحتمل ان عمران مصر في ايام الاسر الفرعونية جاءها عن يد شعب غازٍ كما حدث في سمريا . على ان نشوء العمران في مصر في العهدين التاريخي والسابق للتاريخ نشوءٌ مستمرٌ ولا شك في ان موجات من الغرباء طفت على مصر بين آن وآخر كما يظهر من اثرهم في الفن المصري على انهُ ليس من المحتم ان يكونوا دخلوها غزاة فاتحين . وكشف اثرهم في الفن المصري من اقوى الادلة على دقة المباحث الاركيولوجية

الاثر الاسيوي في الفن المصري القديم

وجد حديثاً في جبل العرق قبضة سكين عاجية منقوشة ، وهي في متحف اللوفر الآن ، وهذه القبضة تثبت على وجهٍ قاطع وجود اثر اسيوي في مصر . ففي اعلى القبضة على احد جانبيها صورة رجل او بطل قابض على اسدين شديدين اسد عن يمينهِ والآخر عن شمالهِ

فهذا الترتيب مما يمتاز بهِ الفن العراقي القديم ويعيد الى الذهن خرافات جلغميش ولا ريب في ان الرداء الذي يرتديهِ البطل في هذه الصورة عراقي . كذلك لحيتهُ المرسلة ولباس رأسهِ . وتحت هذه الصورة صورة كلبين لا يشبهان كلاب مصر في شيء وتحتهما اسد يقفز على كفل ثور « يسير بهدوء كأن لم يحدث حادث ما » فموضوع هذه الصورة عراقي واسلوب تصويرها ونقشها يماثل اسلوب الفن الذي عثر على آثارهِ في شوشن كما تقدم . والامثلة كثيرة على وجود اثر اسيوي في الفن المصري فنكتفي بما تقدم . ويظهر ان البناء بالطوب كان من الامور المشتركة بين البلادين فقد استخدم المصريون الطوب في بناء مصاطب الاسرة الاولى وتظهر آثارهُ في الاختام الاسطوانية التي عثر عليها في العراق

واذا تجاوزنا النظر في الامور الفنية الى اتصال البلادين جغرافياً وجدنا من الادلة

ما يؤيد هذا النظر . لانهُ ثبت لقريباً ان القادمين (الى العراق) التقوا بالمصريين على شواطئ البحر الاحمر حيث يمتدُّ وادي الحمامات الى النيل . فعلى ضفة البحر الاحمر المصرية قرب وادي الحمامات عثر الباحثون على اقدم الآثار التي ترجع الى العهد السابق للتاريخ في مصر وقد ثبت ان العناصر الغريبة عن مصر كانت على اتصال بالاسرة الاولى المصرية وهي الاسرة التي نشأت في جوار وادي الحمامات . فالراجح ان البحر الاحمر عُبر حينئذٍ وقد ثبت من قيضة السكين العاجية التي وُجدت في جبل العرق ان هؤلاء القوم الغرباء كان عندهم سفن . ونشر المستر فرنكفورت ادلة اخرى اثرية فنية لاثبات ذلك لا محل لبسطها هنا نستخلص منها ان بعض الصور التي وجدت على آنية في العراق وعلى آنية اخرى في مصر من عهد الاسرة الاولى متشابهة تماماً مع انها ليست مصرية في شيء فالراجح ان المصريين اقتبسوها من السمريين

بلاد العرب مهد العمران

تقدَّم معنا ان السمريين جاؤا العراق من الجنوب في الغالب وليس من الهند وان هناك اثراً اسيوياً في الفن المصري القديم والظاهر ان هذا الاثر سمري فهل نستطيع ان نجد مصدراً واحداً للسمريين ولما نحسبهُ اثراً عراقياً في مصر ؟ هل خرج السمريون من بقعة في جنوب بلاد العرب اصبحت الآن قاحلة ، يدفعهم الدافع الذي دفع اصحاب الخزف المدعون من شوشن الى ما بين النهرين اي تغيّر الاقليم ؟ هل توطن جماعة من هؤلاء السمريين الرحّل وادي الفرات وتوطن جانب آخر منهم وادي النيل ؟

اذا حصرنا نظرنا في الادلة العقلية ترجح لنا ان السمريين كانوا يقطنون جانباً من جنوب بلاد العرب اذ لا نعرف عملاً آخر يصحُّ ان يكون موطنهم الاول . ولكن القول بان جنوب بلاد العرب مصدر الاثر الاسيوي في الفن المصري المتقدم ذكرهُ شديد الافتقار الى الاثبات . على انهُ لايحسن بنا الاغضاء عن رأي يعلل حادثتين بعلة واحدة وهذه العلة مبنية على تغيّر الاحوال الجوية في البلدان المذكورة وهي علة متينة الاساس . فمن المعروف لدى علماء الظواهر الجوية ان جفاف الصحاري زاد بعد انقضاء العصر الجليدي الاخير وهناك ما يسوّغ القول بان صحاري اسيا وافريقية كانت ارضاً معشوشبة مأهولة في الغالب ، في جانب من العصر الجليدي الاخير . والراجح ان الانسان في تلك الازمنة القديمة اقبل على السكن فيها سواء كان صيّاداً او راعياً رحالة . فاذا قلَّ متوسط ما يقع في تلك الاراضي من المطر تحوّلت حالاً الى صحراء قاحلة فيهجرها ساكنوها الى الاودية

التي يكثر فيها المطر . ولا يبعد ان اسباباً كهذه الاسباب كانت فعالة في افريقية ولعلها كانت السبب الاول في دفع الناس الى سكن وادي النيل وتفرق الشعوب من العصر الحجري الحديث في اطراف اوربا الغربية . ولعلها ايضاً كانت السبب في سوق سكان اواسط اسيا الرحل الى سهول الصين . على ان تفرق الشعوب في تلك العصور القديمة لا يهمنا هنا في المقام الاول

فهل وجدت ادلة تثبت وجود عمران مصري قديم في جنوب بلاد العرب ؟ كلاّ لان تلك البقعة هي من البقاع القليلة التي لم يعمل فيها معول الناقبين الى الآن . وزد على ذلك فان الرحالين الاوربيين لم يبلغوا اليها الاّ نادراً وحينئذٍ اكتفوا بنظرة عجلى الى جغرافية البلاد واحوال اهلها . فقد يوجد في اليمن وحضرموت وعمان اكام في جوفها آثار قديمة كالاكام التي عثر عليها حديثاً في وادي السند بالهند . واذا كان ذلك ممكناً في الهند بعد انقضاء ١٥٠٠ سنة على احتلال الانكليز لها ومرور سنين كثيرة على البحث الاثري المنتظم في ارجائها افلا يسوّغ لنا ما نأمله من العثور على ما يماثلها في ارجاء بلاد العرب المذكورة ؟ واننا نجد في كتابة الماجور تشيزمن آخر الرواد الذين اخترقوا جنوب بلاد العرب ما يوافق رأينا مع انهُ ليس من القوة بحيث يتخذ دليلاً متيناً . فقد وصف سكان واحة المرّه في وصف جبرين بعد زيارته لها سنة ١٩٢٣ قال انهم يسكنون الخيام ويتكلمون العربية عدا لسانهم القومي وكانوا الى سنة ١٩٢١ وثنيين واعداؤهم قبيلة العوامر يتجولون في الصحراء الى الجنوب ويتكلمون لساناً آخر تصفهُ قبيلة المرّة بانهُ سلسلة من الحروف الحلقية ثم يقول المستر تشيزمن «ان ملامح الوجه في قبيلة المرة يذكرني بملامح رأيتها على نقوش مصرية قديمة فاذا حسبنا انهم بقايا تلك الامة القديمة لم يكن حسباننا من قبيل التخيّل لان الفتوحات ومرور الامم على طرق التجارة لا تؤثر فيهم ولا تنال منهم تغييراً ما في معقل الصحراء »

فاذا اعتمدنا على هذا الرأي — وجود حضارة قديمة في جنوب بلاد العرب — فمكننا من تعليل الاثر الاجنبي في مصر القديمة تعليلاً ابلغ من تعليلهِ باتصال مباشر بين مصر والعراق . وقد قال لي عالم اميركي مختص بالتاريخ المصري القديم ان النقب في اليمن من الغايات القليلة التي لم يمسّ اليها عمال الآثار بعد . كان ذلك قبل الحرب وكان يأمل ان تبدأ عملية النقب هناك . على ان نشوب الحرب الكبرى اوقف كل بحث في مهد العمران